مظاهر التو افق الحركي في تفسير النهر الماد من البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي

The Aspects of diacritical marks Concordance in the Interpretation of Annahr Al-Mad Mina Albahr Al-Muhit

الدكتورة: قمرة كرام

قسم اللغة والأدب العربي -جامعة الشهيد حمَّة لخضر-الوادي(الجزائر)

Kiramg2009@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2019/05/11 تاريخ القبول: 2019/07/11

الملخص:

التغيير في الحركات وتخفيفها ظاهرة شائعة في اللغة العربية تتجلى بوضوح في اختلاف القراءات القرآنية واقترانها باللهجات العربية، لأن العرب كانوا يخففون الحركات ويلجؤون إلى السكون كلما احسوا استقالا في النطق ، والحركات عندهم مصنفه ومرتبه بحسب الخفة والثقل ، فإن لم يتسن لهم التسكين عدلوا إلى الحركة الأخف التماسا للتوافق الحركي. وقد اهتم المفسرون اللغويون بهذه الظواهر الصوتية وأسندوها إلى أصولها في اللهجات العربية، كما هو الحال بالنسبة لأبي حيان الأندلسي في تفسيريه البحر المحيط والنهر الماد هذا الأخير الذي اخترته مدونة لهذه الدراسة نظرا لاختصاره وصغر حجمه ومايزخر به من مظاهر التوافق الحركي.

الكلمات المفتاحية: التوافق الحركي ؛حركة البناء ؛حركة الإعراب ؛حذف الحرك ؛الإتباع

Abstract:

Diacritical marks change or alleviation is a common aspect in Arabic Language. This is clearly manifested in the different Quranic reading and its connection to Arabic dialects. The Arabs used to alleviate the pronunciation of vowels and resort to the Sukun motion whenever there is a weight in enunciation. In this perspective, Diacritical marks are classified according to their alleviation and weight. In the case of consonants lacking, and for concordance reasons, they turn to the lightest mark.

The philologists, such as Abu Hayan Al-Andalussi in his elucidation of "AL-Bahr Almuhit and Annahr Almad", focused on these phonetic phenomena and related it to origin in the Arabic dialects. In his elucidation. I have chosen Abu Hayan's work for its brevity and small size to reveal the corpus of this research.

Key words: *Diacritical concordance – Structural mark – Parsing mark – Mark deletion– Tracking.*

مقدمة:

نزل القرآن الكريم على سبعة أحرف قيل إنها سبع لهجات عربية مختلفة، وقيل إنه نزل بلسان قريش ومن جاورهم من فصحاء العرب، ثم أجيز لبقية العرب أن يقرؤوه بلهجاتهم التي ألفوا استعمالها، لأنه من العسير أن يغيّر أحدهم لهجته التي نشأ عليها.

وقد اهتم أبو حيان الأندلسي (654هـ/745هـ) في تفسيره المختصر المسمى بـ "النهر الماد من البحر المحيط" بالقراءات القرآنية وتخريجها على هذا الأساس اللهجي، بين من يميل إلى ضبط اللغة والنطق بها على أفصح وجوهها، وبين من يميل بطبعه إلى تخفيف النطق والاقتصاد في الجهد، مراعيا في ذلك مدى التوافق بين الحركات وتناسبها وعذوبة نطقها. ومن هنا يكون السؤال الجدير بالطرح: ما هي الحالات التي تعدل فيها القراءات القرآنية عن الحركة الأصلية؟ وما موقف أبي حيان منها في النهر الماد من البحر المحيط؟

وللإجابة عن هذا السؤال لابد أن نستعرض مفهوم التوافق الحركي وطبيعته أولا، ثم نقف عند مظاهره من خلال المحطات الآتية: التسكين والحذف ثم الإتباع، مبرزين موقف أبي حيان منها في كل مرة.

1. مفهوم التوافق الحركي وطبيعته:

إن التغيير في حركات بناء الكلمة ظاهرة شائعة في اللغة العربية خاصة حين يتعلق الأمر بالقراءات القرآنية واختلاف اللهجات العربية، لأن العرب كانوا يتخففون ما وجدوا السبيل[1]. ومبدأهم في ذلك كما قال ابن جنّي هو: «الجنوح إلى المستخف والعدول عن المستثقل وهو أصل الأصول»[2]. فمتى أحسوا استثقالاً في لغتهم ناتجا عن الحركات مالوا إلى الإسكان، وهو عدم الحركة، وسماه الأخفش والفراء التخفيف في مقابل التثقيل، الذي يراد به التحريك[3]، وهو أحد الوسائل التي يلجأ إليها اللسان العربي أثناء هروبه من الثقل ومحاولته التيسير والتخفيف في النطق[4].

ولقد تكلم اللغويون القدامى عن الحركات القصيرة والطويلة من حيث الخفة والثقل، وهي مسألة تتردد كثيراً عند سيبويه، فهو يرى أن الفتحة أخف الحركات، تليها الكسرة، والضمة أثقلها[5]. وذلك في الباب الذي عقده في كتابه وسماه (ما يسكّن استخفافاً وهو في الأصل متحرك)[6]. والسبب في خفة الفتحة وثقل الضمة والكسرة، يبدو جليا من خلال النطق، فالفتحة قصيرة أو طويلة (الألف) لا تكلف الناطق إلا إرسال النفس حُرا، وترك مسرى الهواء أثناء النطق بلا عناء في تكييفه، أما الضمة وامتدادها وهو (الواو) فإن النطق بها يكلفك ضَمَّ الشفتين ومطّهما، وتدويرهما حتى تحقق نطق الضمة أو الواو، واختبر ذلك في: قل وصم، وقولوا وصوموا مثلا، وراع هيئة الضم والشفتين حين النطق، وكذلك الكسرة وامتدادها، وهي الياء، تكلفك أن تكسر مجرى الهواء، وتحني طرف اللسان عند اللثة ليمثل الصوت ما تريد من الكسرة أو الياء، كما ترى في: صيد وبيع، وصِدْ وبِعْ[7].

وفي هذا دليل على تذوق العرب للغتهم وتنبؤهم بثقل الحركة وخفة السكون في النطق، وقد ظهر ذلك جليا في أوزان الشعر العربي يقول الأخفش: «وأحسن ما يكون عليه الشعر أن يبنى على متحركين بينهما ساكن أو متحركين بين ساكنين فهذا أعدل الشعر وأحسنه، فإذا كثرت سواكنه ومتحركاته على غير هذه الصفة قَبُح»[8]، لأن العرب بنوا كلامهم على متحرك وساكن، ومتحركين وساكن، ولم يجمعوا بين ساكنين في حشو الكلمة، ولا في حشو بيت، ولا بين أربعة أحرف متحركة؛ لأنهم في اجتماع الساكنين يبطئون، وفي كثرة الحروف المتحركة يستعجلون، وتذهب المهلة في كلامهم، فجعلوا الحركة عقب الإسكان[9]، فالكلام لا يحسن إلا إذا بُني على المراوحة بين السكنات والحركات.

وقد عُرفت هذه الظاهرة في أمهات كتب اللغة بتسميات متعددة نذكر منها: المقاربة[10] والمضارعة[11] والتقريب والإتباع[12]، ويطرأ التغيير الحركي على أوائل وأواسط وأواخر الكلم، فإذا تعلّق بآخره فإنه يتجاوز حركة البناء إلى حركة الإعراب فيغيرها.

ومن المشهور المتداول في بيئة اللغويين تسكين وسط الثلاثي المجرد اسماً وفعلاً من أجل التوافق الحركي، وابتغاء التخفيف درءا للثقل؛ لأن التسكين يحقق نوعا من التوافق والانسجام، ناتجا عن كون السكون أخف من الفتحة والفتح أخف من غيره، والضمة أثقل من الحركات في عرف النحاة[13].

وقد ذكر سيبويه في كتابه عدة نماذج من أقوال العرب فقال: « ما يسكّن استخفافا، وهو في الأصل متحرك، وذلك قولهم في فخِذ: فَخْذ وفي كَبِد: كبْد وفي عَضُد: عضد، وفي الرَّجُل: رَجْل، وفي كَرُم الرّجل: كَرْم، وفي عَلم: علْم،... وقولهم في عُنُق، عنق، وفي إبِل: إبْل»[14].

وقوله (وهو في الأصل متحرك) يدل على أن الأصل هو اللغة الفصحى وما ورد فيه التسكين هو فرع عنها، يقصد به لهجات بعض القبائل العربية. منهم بكر بن وائل وأناس كثير من تميم[15].

2. تسكين الوسط في الأسماء: ويشتمل على عدة صيغ:

1.2 تسكين عين (فَعِل):

نحو: (رَجِلك): في قوله تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ﴾ [الإسراء: 64]، قال أبو حيان: "وقرأ الجمهور: ورَجْلك، بفتح الراء وسكون الجيم، وهو اسم جمع، واحده راجل كركْب وراكب"[16]. وقال ابن عطية هي صفة يقال فلان يمشي رَجِلا أي غير راكب[17]. ثم سكنت الجيم طلبا للخفة.

ومنه يبدو أن ظاهرة التسكين لجأ إليها بعض العرب إذا اجتمع في كلامهم حركتان ثقيلتان فإنّهم يميلون إلى التسكين طلبا للخفة وهي لغة عزاها سيبويه إلى بكر بن وائل، وأناس كثير من تميم[18]. ونسبها أبو حيان أيضا إلى قبيلة تميم في عدة مواضع، إلا في هذا الموضع وهو (ورجِلك) بفتح الراء وسكون الجيم نسبها إلى لغة الحجاز.

ولجوء القراء إلى تسكين عين فَعِل بدلا من كسرها ناتج عن استثقالهم للكسر بعد الفتح، فاستبدلوها بالسكون، لأن (السكون أخف الحركات) أو (أخف من الحركات) أو لأن (الفتح أقرب الحركات للسكون)، هذه أهم التفسيرات التي استند إليها علماء اللغة والقراء، وقد علّل كمال بشر ما ذهبوا إليه (بافتراضهم أن السكون شيء ينطق ولكنه أخف الحركات أو أخف منها في ذلك، والفتح أقرب الحركات إلى السكون لأنه يقرب منه أو يشبهه في خفة النطق)[19].

ورغم اختلاف هذه الآراء إلّا أنها تفيد جميعاً خفة النطق بالساكن مقارنة بالمتحرك؛ إذ لا تكون الخفة والثقل إلا في النطق والتلفظ بالشيء بداهة، والذي يبدو ـ كما يقول كمال بشر ـ من أن السكون ـ على المستوى الصوتي الوظيفي ـ عنصر صوتي أو حركي على الرغم من أنه "لا شيء" ـ وبالتالي ليس حركة أو صوتا ـ من ناحية النطق والتأثير السمعي[20]. لذلك كان من الجدير أن تنطق به العرب ـ في ضوء معيار الخفة والثقل ـ بعد حركة الفتحة رغم أنها أخف الحركات.

2.2 تسكين عين (فعُل):

نحو:(عَبُد) في قوله تعالى:﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾[المائدة: 60]، وقرأ جمهور السبعة: وعَبَد الطاغوت. وقرأ ابن وثاب والأعمش وحمزة: وعَبُد بضم الباء، الطاغوتِ بكسر التاء. قال الزمخشري: ومعناه الغلوُّ في العبودية كقولهم رجل حَذُر وفَطُن للبليغ في الحذر والفطنة. وقال ابن عطية: عَبُد لفظ مبالغة كيَقُظ ونَدُس، فهو لفظ مفرد يُرادُ به الجنس ويُبنى بناء الصفات لأن (عَبُد) في الأصل صفة وإن كان يستعمل استعمال الأسماء وذلك لا يخرجه عن حكم الصفة ولذلك لم يمتنع أن يُبنى منه بناء مبالغة، وأنشد هو والزمخشري: [من الكامل]

أَبني لُبينى إنّ أُمّكمُ أَمَةٌ وإنّ أباكمُ عَبـد

وعَدَّ ابن مالك في أبنية أسماء الجمع فَعُلاً فقال: ومنها فَعُل كسَمُر وعَبُد. وعلى هذه القراءة يكون (وعَبُد) معطوفاً على قوله (القردة والخنازير)، وعلى قراءة الجمهور يكون معطوفاً على صلة (مَنْ). وفي (البحر) أنَّ في قوله تعالى (وعبد الطاغوت) اثنتين وعشرين قراءة وتكلّم على توجيهها فيه، منها قراءة الحسن: وعبْد الطاغوتَ بإسكان الباء ونصب التاء، قال ابن عطية: أراد وعبداً، منوناً فحذف التنوين كما في قوله: [من المتقارب]

[فألفيته غير مُسْتَعْتِبٍ] ولا ذاكرَ الله إلا قليلا

وإذا كان العرب لجأوا إلى تسكين عين فَعِل بدلا عن كسرها تخفيفاً، فمن باب أولى أن يلجؤوا إليه في عين فَعُل لأن الضم أثقل الحركات.

3.2 تسكين عين (فِعَل): نحو: (جِبَلا):

في قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلا كَثِيرًا﴾[يس: 62]، قال أبو حيّان: وقرأ العربيان، والهذيل بن شرحبيل: جُبْلا، بضم الجيم وإسكان الباء، وقرئ: جِبَلا، بكسر الجيم وفتح الباء وتخفيف اللام. والجبلّ الأمة العظيمة[21].

وإذا كانت العرب تستنكر تتابع حركتين ثقيلتين كما هي الحال في (جِبِل) فقد لجأ قوم إلى التخفيف فقرأوا بفتح العين (جِبَلا)، وقرأ آخرون (جُبْلا) بضم فائه وتسكين عينه، والقراءة بالتسكين أخف على اللسان أثناء النطق نظراً لأن الانتقال فيهما يكون من الحركة الأقوى ـ الضم ـ إلى السكون.

4.2 تسكين عين (فُعُل):

نحو: (**بُشُرا**) في قوله تعالى:﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ [الأعراف: 57]، قال أبو حيان: "وقرئ: نُشْرا: بإسكان الشين تخفيفا من الضم كرُسُل ورسْل"[22]. وقرأ ابن عباس والسّلمي وابن أبي عبلة (بُشُرا) بضم الباء والشين ورويت عن عاصم وهو جمع بشيرةٍ كنذيرة ونذر، وقرأ عاصم كذلك إلا أنه سكن الشين تخفيفاً من الضم[23]. والقراءة بتسكين عين فُعُل لغة من لغات العرب لجأت إلى التخفيف كراهة تتابع حركتي الضم في الفاء والعين وما يترتب عليها من ثقل أثناء النطق.

5.2 تسكين عين (فِعِل):

نحو: (**بارئكم**) في قوله تعالى:﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾[البقرة: 54]، عند تفسيره لهذه الآية ذكر أبو حيان أنه: قرئ بارئكم بكسر الهمزة واختلاس حركتها وبإسكانها إجراء للمنفصل مجرى المتصل كإِبْل في إِبِل[24].

والشاهد هنا هو تسكين عين فِعِل كما في إبْل من إِبْل. ومثل تسكين بارئكم، قراءة حمزة[25]. ولقد وردت لفظة (إبل) في القرآن مرتين [الأنعام:44] و[الغاشية:17] إلا أن أبا حيان لم يذكر قراءتها بالتسكين فيها في النهر الماد.

والأصل أنه قرأ الأصمعي عن أبي عمرو: بإسكان الباء[26] في (إبل) من قوله تعالى:﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾[الغاشية: 17].

وتسكين الحركة واختلاسها وجهان للخفة دأب عليهما العرب في لغاتهم وفي ذلك يقول ابن جني: « وقد ضايقوا أنفسهم وخففوا من ألسنتهم بأن اختلسوا الحركات اختلاسا، وأخفوها فلم يمكنوها في أماكن كثيرة ولم يشبعوها»[27].

6.2 تسكين عين (فَعَل):نحو (دَأَبا)

في قوله تعالى:﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾[يوسف: 47]، قال أبو حيان: وقرئ: دأباً، بفتح الهمزة وسكونها[28]. وقرأ حفص: دأباً بفتح الهمزة، والجمهور بإسكانها[29].

الأصل في ما جاء على هذا الوزن ألّا يخفف بتسكين وسطه، لأن الفتحة أخف الحركات، قال سيبويه: "وأما ما توالت فيه الفتحتان فإنهم لا يُسكّنون منه؛ لأن الفتح أخف عليهم من الضم والكسر، كما أنَّ الألف أخف من الواو والياء"[30]. فالذين يقولون: كَبْد وفَخْذ، لا يقولون في جَمَل: جَمْل[31].

أمّا ابنُ جني فقد ذكر تخفيف مفتوح العين، فقال: "وقد سُمع شيء من هذا الإسكان في المفتوح، قال الشاعر [الأخطل] (طويل):

وَمَا كُلُّ مُبْتاعٍ وَلَوْ سَلْفَ صَفْقه بِرَاجِعٍ مَا قَدْ فَاتَهُ بِـردَادِ[32]

على أنّ أصله (سَلَف)، وتسكين العين المفتوحة شاذّ ضرورة[33].

ذكر ابن عصفور أن نقص الحركة مثل حذفهم الفتحة من عين (فَعَل) مبالغة في التخفيف نحو قول الراجز:

عَلَى مُحَالاَتٍ عُكِسْنَ عَكْساً إِذَا تَسَدَّاها طلَّابا غَلْسَا

وقول أبي خراش (طويل):

وَلَحْم امْرِئٍ لَمْ تَطعَمْ الطَّيرُ مِثلَهُ عَشِيةً أَمْسَى لاَ يُبِينُ مِنَ الْبَكَمِ

يريد من الْبَكَم[34].

وقد ذكر أبو حيان ما ذهب إليه سيبويه وابن جني فقال: "وزعم بعض الناس أن كل اسم ثلاثي حلقي العين صحيح اللام يجوز فيه تحريك عينه، وتسكينها مثل بَحْر وبَحَر ونَهْر ونَهَر، فأُطلق هذا الإطلاق، وليس كذلك، بل ما وضع من ذلك على (فَعَل) بفتح العين، لا يجوز فيه التسكين نحو السَّحَر لا يقال فيه السَّحْر، وإنما الكلام في (فَعْل) المفتوح الفاء الساكن العين، وفي ذلك خلاف. ذهب البصريون إلى أن فتح ما ورد من ذلك مقصور على السماع، وهو مع ذلك مما وُضع على لغتين، لا أن أحدهما أصل للآخر، وذهب الكوفيون إلى أن بعضه ذو لغتين، وبعضه أصله التسكين ثم فتح. وقد اختار أبو الفتح مذهب الكوفيين، والاستدلال مذكور في كتب النحو"[35].

وفي هذا بيان لما جاء عند البصريين من أن الاسم الثلاثي إذا كان مفتوح الفاء حلقيا ساكنا جاز تحريكه بالفتح نحو الشّعْر والشَّعَر والبحْر والبَحَر، وهما لغتان ليست إحداهما فرعاً عن الأخرى.

أما الكوفيون وتبعهم ابن جني فقد جعلوا مفتوح العين فرعاً لساكنها، وذلك لمناسبة حرف الحلق للفتح[36].

وما جاء به الكوفيون ليس على إطلاقه، إنما يرجع إلى اللغة، فيقال: لِفُلان عليَّ وَعْد، ولا يقال: وَعَد، ولا فرق بين حروف الحلق وغيرها في هذا[37].

كما أن ما ورد من هذا حلقي الوسط ليس كله غرضه التخفيف. قال أبو حيان في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ﴾ [النحل: 80]، (عين ظعنكم) فتحها الحرميان وأبو عمرو وباقي السبعة بسكونها، وهما لغتان، وليس السكون بتخفيف كما جاء في نحو الشَّعَرُ وَالشَّعْرُ لمكان حرف الحلق[38]، بينما الحجة في ذلك لمن حرك العين أنها من حروف الحلق، والحجة لمن أسكن أنه أراد المصدر[39].

7.2 تسكين عين فِعُل (بناء عارض): نحو (الرِبُو):

في قوله تعالى:﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَاءِ[البقرة: 275]، قال أبو حيان: وقرأ العدوي: الربو بالواو وهي لغة الحيرة، ولذلك كتبها أهل الحجاز بالواو لأنهم تعلّموا الخط من أهل الحيرة، وذلك على لغة من وقف على «أفعى» بالواو وأجرى الوصل مجرى الوقف[40]. فقرأ: من الرّبُو بضم الباء بعدها واو ساكنة، وفيه شذوذ من خروج من كسرٍ إلى ضمّ ومن مجيء واو ساكنة بعد ضمّة في اسم تام[41]. ووصفها أبو حيان بالشذوذ لأنه لا يوجد في لسان العرب اسم آخره واو قبلها ضمة، بل متى أدى التصريف إلى ذلك قُلبت تلك الواو ياء، وتلك الضمة كسرة[42]؛ لأن الكسرة ثقيلة والضم أثقل، والانتقال من الكسر إلى الضم في نطق الكلمة خروج من ثقيل إلى أثقل منه لهذا كان الوزن مهملا باتفاق العلماء[43]. وقد اعتبره أبو حيان مفقودا وإن وردت به بعض القراءات فهو متأول[44].

وقد نصّ النحاة على انعدام هذا البناء في العربية كراهة خروجهم من الكسر إلى الضم بناء لازما[45]، وقد أولت هذه القراءة على أنها على لغة من قال في أفعى (أَفْعَوْ) في الوقف، وأنّ القارئ إما لم يضبط حركة البناء وإما سعى قربها من الضمة ضما[46]. وقد علق ابن جني على هذه القراءة بأن فيها ضربين من الشذوذ في أمرين، أحدهما: الخروج من الكسر إلى الضم بناء لازما، والآخر: وقوع الواو بعد الضمة في آخر الاسم وهذا شيء لم يأت إلا في الفعل، نحو: يغزو ويدعو[47].

وقوله لازما أي ليس عارضا نحو الحِبُك فكسرة الحاء ليست لازمة وقد نُقل عن ابن جني تأويلا لهذه القراءة: قال فيه: إنه من تداخل اللغات في الحاء والباء، والضم فيهما فأخذ القارئ الكسر من لغة والضم من أخرى، واستبعدها الناس؛ لأن التداخل إنما يكون في كلمتين، وخرّجها أبو حيان على أن الحاء أُتْبِعَتْ لحركة التاء في ذات[48].

3 حذف حركة الإعراب:

لقد أطلق النحاة على حذف الحركة مصطلح (التسكين)، فالتسكين إذن هو حذف الحركة وإحلال السكون محلها، فالحركة موجبة، والتسكين سلب الحركة عن الحرف؛ من أجل هذا تعد الحركة قسيماً للسكون[49]. وقد جرى ذلك على ألسنة العرب الفصحاء أو في شعرهم حين تدفعهم الضرورة الشعرية إلى ذلك لأنهم يميلون بطبعهم إلى التخفيف في الكلام، على خلاف النحاة الذين قيّدوا المتكلم بضبط حركة الإعراب في كل الأحوال، لأنها تؤدي معنى وظيفيا وتختلف عن حركة البناء، ولم يسمحوا بتسكينها إلا في حال الوقف.

1.3 حذف حركة الضم:

نحو: بعولتُهن: في قوله تعالى:﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ ۚ [البقرة: 228]، قال أبو حيان: وبعولتهن: أي وأزواجهن... وقرئ بضم التاء وسكونها[50]. وقرأ مسلمة بن محارب: وبعولتهن، بسكون التاء، فرارا من ثقل توالي الحركات، وهو مثل ما حكى أبو زيد: ورسلنا، بسكون اللام. وذكر أبو عمرو:

أن لغة تميم تسكين المرفوع من: يُعَلِّمُهم، ونحوه[51]، وقيل: أجرى ذلك مُجْرى عَضُد وعَجُز، تشبيهاً للمنفصِل بالمتصِلِ[52].

2.3 حذف حركة الكسر:

نحو: السيئ: في قوله تعالى:﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ[فاطر: 43]، قال أبو حيان: قرأ حمزة: السّيّءْ بإسكان الهمزة، أجرى الوصل مجرى الوقف[53]، وفي البحر قال: والأعمش وحمزة بإسكانها فإما إجراء للوصل مجرى الوقف، وإما إسكانا لتوالي الحركات وإجراء للمنفصل مجرى المتصل، كقوله: لنا إبلان[54]. وشبهها ابن خالويه (ببارئكم) فقال: وَمَكْرَ السَّيِّئِ... بوقف الهمزة كالجزم في الفعل، وإنما فعل ذلك تخفيفا للحرف لاجتماع الكسرات وتواليها مع الهمزة.

وقد ذكر ابن الجزري وجه إنكار النحاة لما روي من قراءات في مثل هذه المواضع، وذلك على الصورة التالية: أنكر النحاة جواز الإسكان في قوله تعالى (فتوبوا إلى بارئكم) في البقرة وهي مجرورة، وفي (مكر السيئ)، وقالوا في ذلك كله بالاختلاس، لعدم جواز حذف الحركة الإعرابية في نظرهم[55].

4. الإتباع الحركي:

الإتباع ظاهرة من الظواهر الأصيلة في اللغة العربية، تحدث بين الكلمات أو الحروف أو الحركات[56]، فإذا كان الإتباع بين كلمتين فهو توكيد لفظي، لكن بإبدال أحد حروف الكلمة الثانية كراهة أن يعيدوا اللفظ بنفسه، كقولهم عطشان نطشان[57]، وإذا كان بين حرفين فهو التقريب أو التجنيس على حد اصطلاح ابن جني[58]، ويقصد به ما ينشأ بين حرفين من التشابه والاتصاف بصفات صوتية متماثلة أو متقاربة تساعد على سهولة النطق في حالة توالهما إذا كان بينهما من المناقضة والمخالفة ما ينفر كُلا منهما من الآخر، أو كانا متباعدي المخرج، أو متماثلي المخرج لكن بينهما تناقضا في الصفات. وجعل منه الإمالة والإبدال والإدغام الأصغر...[59]، وإذا كان بين حركتين فهو الإتباع الحركي كما اصطلح عليه سيبويه[60]، وتبعه في التسمية الفراء (ت 207ه)[61]، وأبو بكر الأنباري (ت328ه)[62]، وأطلق عليه الزجاج (ت 311ه) اسم المطابقة[63]. وأما المحدثون فنعتوه بالتوافق الحركي أو الانسجام الحركي[64]، أو المماثلة في الحركات[65].

والإتباع الحركي ظاهرة صوتية تحدث نتيجة تأثير صوت في صوت آخر يجاوره في مستوى الحركة فيتماثلان في النطق، وتحدث بين الحركات المتباينة في كلمة واحدة غالبا أو كلمتين متجاورتين، فيتأثر أحدهما بالأخر فيؤدي ذلك إلى حدوث انسجام صوتي بين الأصوات القصيرة، وهذا ما لا ينكره علم اللغة الحديث، يقول أحمد مختار عمر: صرّح "أندريه مارتينيه" بأن: التغيرات الصوتية الهامة في اللغة ترجع أساسا إلى الميل إلى استعمال الوسائل الفونيمية في اللغة اقتصادا في الجهد وبطريقة سهلة وبقدر الإمكان[66]؛ لهذا يعد الإتباع الحركي ضربا من التخفيف والاقتصاد في الجهد العضلي المبذول[67]. والحركات الناتجة عن الإتباع لا تدل على معنى من المعاني التي تحملها الحركات الإعرابية[68]. والإتباع الحركي ثلاثة أنواع:

1.4 الإتباع بالفتح:

نحو: مذبذبين: في قوله تعالى:﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾[النساء: 143]، قال أبو حيان: مذبذَبين أي: مُقَلْقَلينَ. وقرأ الحسن البصري: مَذَبْذَبِينَ بفتح الميم والذالين. وقد ردّ هذه القراءة ابن عطية ودافع عنها أبو حيان في نهره قائلا: الحسن البصري من أفصح الناس يُحْتَجُّ بكلامه فلا ينبغي أن تردّ قراءته، ولها وجه في العربية وهو أنه اتبع حركة الميم لحركة الذال. وإذا كانوا قد أَتْبَعُوا حركة الميم لحركة عين الكلمة في مثل: مِنْتِن وبينهما حاجز فلأن يُتْبِعُوا بغير حاجز أولى. وكذلك أتبعوا حركة عين منفعل لحركة اللام في حالة الرفع فقالوا منحدُرٌ، وهذا أولى لأنَّ حركةَ الإعراب ليست بثابتة بخلاف حركة الذال، وهذا كله توجيه شذوذ وعلى تقديرِ صحةِ النقلِ عن الحسنِ البصريِّ أنه قرأ ذلك بفتح الميم . وفي الإتباع خفة ناتجة عن توالي فتحتين، والهروب من الضم إلى الفتح لأنه أخف منه.

2.4 الإتباع بالكسر:

نحو: الحمد لله: في قوله تعالى:﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [الفاتحة: 02]، قال أبو حيان: وقرئ: (الحمد لله) بكسر الدال إتباعاً لحركة اللام . وهي قراءة الحسن وزيد بن علي . ومما اشتهرت به لهجة تميم قراءة الحسن البصري (الحمدِ لله) وقد روى النحاس أن القراءة على هذا النحو خاصة بلهجة تميم . وقد أشار "الأنباري" إلى قراءة (الحمدِ لِله) بكسرتين، وقراءة (الحمدُ لله) بضمتين فقال: "كسروا مايجب بالقياس ضمه، وضموا ما يجب بالقياس كسره للإتباع طلبا للمجانسة"، فتشابه الحركات ضما وكسرا إنما هو للإتباع، والإتباع إنما هو للمجانسة. أي: مجانسة الحرفين للكسرتين أو الضمتين؛ لأن اللسان في ذلك يعمل من طرف واحد. وفي ذلك تخفيف في النطق واختصار للجهد، لأن الخروج من الشيء إلى مثله أخف من الخروج إلى ما يخالفه.

3.4 الإتباع بالضم:

نحو: صدقة: في قوله تعالى:﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾ [النساء: 04]، قال أبو حيان: (صدقاتهن) وقد تسكن الدال ويقال صُدْقة على وزن غُرْفة وقد تضم الدال . فتكون صُدُقة بإتباع حركة الدال بضم الصاد، وعليها قراءة مجاهد وموسى بن الزبير وابن أبي عبلة وفياض بن غزوان وغيرهم . وهما لغتان في الصدقة، تنسب لغة الإتباع فيها (صُدُقة) إلى الحجاز، وتنسب لغة التخفيف (صُدْقة) إلى تميم.

خاتمة:

وخلاصة القول في هذا المقال أن التعليل المنهجي لمختلف القضايا الصوتية السابقة الذكر، والمتعلقة بحالات التوافق الحركي المذكورة في النهر الماد ارتبطت باللهجات العربية التي تتجه إلى التخفيف في النطق، حيث تُخفَف الكلمة تسهيلا للنطق واقتصادا في الجهد، إما بتسكين بعض حركات بنائها نحو: (رَجِل ورَجْل)، أو بإلغاء حركة الإعراب فيها فيسكن الحرف فيها كما في (بُعولتْهنَّ)،

أو بإتباع الحركة للتي تليها في نحو : (صُدُقاتهنَّ)، حيث عزا أبو حيان لغة التخفيف في أغلب المواضع إلى لغة تميم. وهي لهجة بسيطة تحمل بين طياتها فرائدا ودررا لغوية مميزة، لا يمكن أن ندرس الظواهر اللغوية في القراءات القرآنية دون فهمها واستيعابها، خاصة ما تعلق منها بالجانب الصوتي وما يطرأ عليه من تغيرات في نطق الصوامت أو الصوائت على السواء.

ومنه نستنتج أن تفسير النهر الماد من البحر المحيط على . اختصاره . تفسير لغوي بامتياز، يتتبع دقائق المسائل الصوتية واللغوية عامة وينسبها لأصحابها. لذا جعلناه محط أنظارنا في هذه الدراسة ، ولا يزال بؤرة اهتمامنا في دراسات لاحقة بإذن الله تعالى.

قائمة المصادروالمراجع:

1. ابتهال كاصد الزيدي، علم الأصوات في كتب معاني القرآن، (دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان)، 2005.
2. إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، (مكتبة لسان العرب، القاهرة)، ط:2، 1992.
3. ابن جنّي، الخصائص، تح: محمد علي النجّار، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة)، ط:4، 1990.
4. ابن جنّي، المحتسب في تبيين وجوه القراءات والإيضاح عنها، تح: علي النجدي ناصف، وآخرون، (دار سَزكين، تركيا)، ط:2، 1986.
5. ابن خالويه، الحجة في القراءات السبع، تح: عبد العال سالم مكرم، (دار الشروق، بيروت)، ط:4، 1401هـ
6. أبو إسحاق الزجاج، معاني القران وإعرابه ، تح: عبد الجليل عبده شلبي، (عالم الكتب، بيروت)، ط:1، 1988.
7. أبو الحسن الأخفش، كتاب العروض، تح: أحمد محمد عبد الدايم عبد الله،(مكتبة الزهراء، القاهرة)، 1979.
8. أبو الحسن الأخفش، معاني القرآن، تح: هدى محمود قراعة، (مكتبة الخانجي، القاهرة)،ط:1، 1990.
9. أبو العباس المبرد، المقتضب، تح: محمد عبد الخالق عظيمة، (عالم الكتب، بيروت)، دط.
10. أبو بكر الأنباري، الزاهر في معاني الكلمات ، تح: حاتم صالح الضامن،(مؤسسة الرسالة، بيروت)، ط:1، 1992.
11. أبو بكر بن السراج، الأصول في النحو، تح: عبد الحسين الفتلي، (مؤسسة الرسالة، بيروت) ط:1، 1985.
12. أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، تح: صدقي محمد جميل وآخرون، (دار الفكر، بيروت)، دط، 1420هـ
13. أبو حيان الأندلسي، النهر الماد من البحر المحيط، تح: عمر الأسعد، (دار الجيل، بيروت)، ط:1، 1995.
14. أبو زكريا الفراء، معاني القران، تح: أحمد يوسف النجاتي وآخرون، (الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر)، ط:1.

15. أبو محمد الواسطي، الكنز في القراءات العشر، تح: خالد المشهداني، (مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة)، ط:1، 2004.

16. أحمد عفيفي، ظاهرة التخفيف في النحو العربي، (الدار المصرية اللبنانية، القاهرة)، ط:1، 1996.

17. أحمد علم الدين الجندي، اللهجات العربية في التراث، (الدار العربية للكتاب، القاهرة)، 1983.

18. الاستراباذي، شرح شافية ابن الحاجب، تح: محمد نور الحسن وآخرون، (دار الفكر العربي، بيروت)، دط، 1975.

19. السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، تح: أحمد محمد الخراط، (دار القلم، دمشق)، د ط.

20. سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، (مكتبة الخانجي، القاهرة)، ط:3، 1988.

21. عبد الصبور شاهين، أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي "أبو عمرو بن العلاء"، (مكتبة الخانجي، القاهرة)، ط:1، 1987.

22. عبد الله بن محمد بن إبراهيم العمير، مسائل التصريف في البحر المحيط لأبي حيان، (دار الصميعي، الرياض)، ط:1، 2007.

23. عيسى شحاته عيسى علي، العربية والنص القرآني، (دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة) 2001.

24. فاضل صالح السامرائي، معاني النحو، (دار الفكر ، الأردن)، ط:1، 2000.

25. كمال بشر، دراسات في علم اللغة، (دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة)، دط، 1998.

26. محمد خان، اللهجات العربية والقراءات القرآنية: دراسة في البحر المحيط، (دار الفجر، القاهرة)، ط:1، 2002.

27. محمود عكاشة، أصوات اللغة، (الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، مكتبة دار المعرفة، القاهرة)، ط:2، 2007.

الهوامش:

1 ينظر: إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، (مكتبة لسان العرب، القاهرة)، ط:2، 1992، ص 48.

2 ابن جنّي، الخصائص، تح: محمد علي النجّار، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة)، ط:4، 1990م. ص163.

3 ينظر: ابتهال كاصد الزيدي، علم الأصوات في كتب معاني القرآن، (دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان)، 2005، ص162، وأبو الحسن الأخفش، معاني القرآن، تح: هدى محمود قراعة، (مكتبة الخانجي، القاهرة)،ط:1، 1990، ج1، ص 103و104.

4 ينظر: عيسى شحاته عيسى علي، العربية والنص القرآني، (دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة) 2001، ص141.

5 ينظر: محمود عكاشة، أصوات اللغة، (الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، مكتبة دار المعرفة، القاهرة)، ط:2، 2007، ص 61.

6 سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، (مكتبة الخانجي، القاهرة)، ط:3، 1988م. ص113.

7 ينظر: أحمد عفيفي، ظاهرة التخفيف في النحو العربي، (الدار المصرية اللبنانية، القاهرة)، ط:1، 1996، ص237.

8 الأخفش، كتاب العروض، تح: أحمد محمد عبد الدايم عبد الله،(مكتبة الزهراء، القاهرة)، 1979، ص 120.

9 ينظر: أحمد عفيفي، ظاهرة التخفيف في النحو العربي. ص 240 و241.

10 ينظر: أبو العباس المبرد، المقتضب، تح: محمد عبد الخالق عظيمة، (عالم الكتب، بيروت)، دط. ص 478.

11 ينظر: سيبويه، الكتاب، ج 4، ص 478.

12 ينظر: ابن جنّي، الخصائص، تح: محمد علي النجّار، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة)، ط:4، 1990م. ج 2، ص 144.

13 ينظر: محمد خان، اللهجات العربية والقراءات القرآنية: دراسة في البحر المحيط، (دار الفجر، القاهرة)، ط:1، 2002م. ص 75.

14 ينظر: سيبويه، الكتاب. ج 4، ص 113 و114 و188.

15 نفسه، ص 113.

16 أبو حيان الأندلسي، النهر الماد من البحر المحيط، تح: عمر الأسعد، (دار الجيل، بيروت)، ط:1، 1995م. ج 3، ص 574.

17 أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط في التفسير، تح: صدقي محمد جميل وآخرون، (دار الفكر، بيروت)، دط، 1420هـ. ج 7، ص 80.

18 ينظر: محمود عكاشة، أصوات اللغة. ص 61.

19 كمال بشر، دراسات في علم اللغة، (دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة)، دط، 1998، ص 150.

20 نفسه، ص 186.

21 أبو حيان الأندلسي، النهر الماد. ج 4، ص 611، والبحر المحيط. ج 9، ص 78.

22 أبو حيان الأندلسي، النهر الماد. ج 2، ص 554.

23 أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط. ج 5، ص 77.

24 أبو حيان الأندلسي، النهر الماد. ج 1، ص 126.

25 أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط .ج 1، ص 334.

26 ينظر: أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج 10، ص 464 و465.

27 ابن جنّي، الخصائص. ج 1، ص 72.

28 أبو حيان الأندلسي، النهر الماد. ج 3، ص 310.

29 أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط. ج 6، ص 285.

30 سيبويه، الكتاب.ج 4، ص 115، وينظر: أبو العباس المبرد، المقتضب، تح: محمد عبد الخالق عظيمة، (عالم الكتب، بيروت)، دط. ج 1، ص117 و260.

31 ينظر: نفسه، ج 4، ص204، وينظر: أبو بكر بن السراج، الأصول في النحو، تح: عبد الحسين الفتلي، (مؤسسة الرسالة، بيروت) ط:1، 1985م. ج 3، ص158.

32 ابن جنّي، الخصائص. ج 2، ص338، وينظر: الاستراباذي، شرح شافية ابن الحاجب، تحـ: محمد نور الحسن وآخرون، (دار الفكر العربي، بيروت)، دط، 1975، ج 4، ص18.

33 ابن عصفور، ضرائر الشعر، تحـ: السيد إبراهيم محمد، (دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت)، ط:2، 1982، ص 84. نقلا عن: محمد خان، اللهجات العربية والقراءات القرآنية. ص111.

34 محمد خان، اللهجات العربية والقراءات القرآنية. ص111.

35 أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط. ج 1، ص 251.

36 ابن جنّي، الخصائص. ج 2، ص 09.

37 ينظر: محمد خان، اللهجات العربية والقراءات القرآنية. ص 112 و113.

38 أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط. ج 6، ص 576.

39 ينظر: ابن خالويه، الحجة في القراءات السبع، تحـ: عبد العال سالم مكرم، (دار الشروق، بيروت)، ط:4، 1401هـ، ص212 و213. ومحمد خان، اللهجات العربية والقراءات القرآنية. ص 115.

40 أبو حيان الأندلسي، النهر الماد. ج 1، ص 401.

41 ينظر: المصدر نفسه،ج1، ص 404.

42 ينظر: محمد خان، اللهجات العربية والقراءات القرآنية. ص 116.

43 ينظر: عبد الله بن محمد بن إبراهيم العمير، مسائل التصريف في البحر المحيط لأبي حيان، (دار الصميعي، الرياض)، ط:1، 2007م. ص 580.

44 نفسه، ص582.

45 ينظر: سيبويه، الكتاب،. ج 4، ص 244، وأبو العباس المبرد، المقتضب. ج 1، ص 55.

46 ينظر: محمد خان، اللهجات العربية والقراءات القرآنية. ص 116.

47 ينظر: ابن جنّي، المحتسب في تبيين وجوه القراءات والإيضاح عنها، تحـ: علي النجدي ناصف، وآخرون، (دار سَزكين، تركيا)، ط:2، 1986. ج1، ص 142. وعبد الله بن محمد بن إبراهيم العمير، مسائل التصريف في البحر المحيط. ج2، ص 582.

48 ينظر: نفسه، ج2، ص 581 و582.

أحمد عفيفي، ظاهرة التخفيف، ص49.231

النهر الماد50 ، ج1، ص323.

51 البحر المحيط، ج2، ص458.

52 الدر المصون، ج2، ص442.

53 النهر الماد، ج4، ص593.

54 البحر المحيط، ج 9، ص 41.

55 أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي، ص 362.

56 ينظر: معاني النحو، ص29.

57 ينظر: اللهجات العربية والقراءات القرآنية، ص 139.

58 ينظر: الخصائص، ج 2، ص 141.

59 ينظر: ظاهرة التخفيف، ص 143و144.

60 ينظر: الكتاب، ج 4، ص 195.

61 ينظر: معاني القران، الفراء، ج2، ص330.

62 ينظر: الزاهر، لأبي بكر الأنباري، تح: حاتم صالح الضامن، ج 1، ص 172.

63 ينظر: معاني القران وإعرابه، ج 1، ص 380.

64 ينظر: الكنز في القراءات العشر، أبو محمد الواسطي، تح: خالد المشهداني، (مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة)، ط:1، 2004، ج1، ص 62.

65 ينظر: اللهجات العربية في التراث، أحمد علم الدين الجندي، (الدار العربية للكتاب، القاهرة)، 1983، ج1، ص143و144.

66 ظاهرة التخفيف، ص 151.

67 ينظر: اللهجات العربية في التراث، ج 1، ص 143.

68 ينظر: معاني النحو، ج 1، ص 30و31، والكنز في القراءات العشر، ج 1، ص 62.